﴿ قرطاجة ﴾

(تابع لما في الجزء السابق)

وكان عدد الثائرين من الجيش تسعين الفاً منهم سبعون الفاً من الافريقيين فتألبوا حول اسوار قرطاجة وحاصروها وكان القائد الاكبر اذ ذاك أَمِلكار وهو غير أملكار السابق ذكرهُ فاستأجر لقمعهم اقواماً من اهل نوميديا (وهي ناحية قُسَنطينة اليوم) وانفذ اليهم احد القوّاد الذين تحت إمرتهِ للنظر في شكواهم فمثَّلوا بهِ وبسبع مئة رجل من القرطاجيين فقطَّعوا آذانهم وايديهم وكسَّروا رُكَبهم ثم قذفوا بهم في مهواةٍ عميقة واقسموا ليَفعلُنَّ كذلك بكل من يُرسَل اليهم . وكان عند أَمِلكار عددٌ كبير من اسراهم فالقاهم الى الوحوش الضارية ثم احاط بالثائرين وقطع عنهم القوت حتى افترس بعضهم بعضاً من شدة الجوع . ولما بلغوا الى هذه الحال بعثوا اليهِ عشرةً من زعمآئهم يسألونهُ الصلح فابى الاّ ان يسلَّم اليهِ عشرة رجال يختارهم منهم فعاهدوهُ على ذلك ولما وقَّعوا على صك المعاهدة قال لهم انتم اولئك العشرة ثم قبض عليهم وصلبهم . ولما اصبح الثائرون ولا زعمآء لهم اعمل فيهم السيف وكان عددهم اربعين الفاً فلم يفلت منهم احد ثم فعل مثل ذلك بفريقٍ آخر منهم فقتل منهم مقتلةً عظيمة وتشتت باقيهم

ولما انتهى امر اولئك الثوار وأمن القرطاجيون بأسهم بقوا يوجسون حذراً من ناحية املكار نفسهِ ولما لم يتهيأ لهم وجهٌ للائتمار بهِ ارسلوهُ للغارة على نوميديا فاخضع كل سواحل افريقيا حتى بلغ الاوقيانوس المحيط وخلّف

في كل هذه النواحي عصائب من الافريقيين . ثم انقلب من هناك للغارة على اسپانيا وهو ينوي ان يستعين بكنوزها على استرجاع سردينيا وصقلّية فدوَّخ النواحي الغربية منها ولما ايقن اهلها انهُ سيجتاح البلاد باسرها نهضوا نهضة اليأس فاتخذوا ثيراناً شدّوها الى مركباتٍ قد ملأُوها ناراً وحطباً وطردوها في جيش القرطاجيين فانهزم القرطاجيون وقُتل املكار

فخلف املكار على قيادة الجيش صهرهُ اسدروبال وعاد الى القتال في اسپانيا فدخل بعض مدنها عنوةً وبعضها صلحاً واختطّ فيها مدينة قرطاجنّة اي قرطاجة الجديدة وكان ينوي ان يجعلها عاصمة مملكةٍ مستقلة تناظر رومية وقرطاجة . وكان عندهُ عبدٌ من الغَوْليين كان قد قُتل سيّدهُ فيمن قُتل من قومهِ في الوقائع السالفة فجعل يترصّدهُ حتى اذا كان يوماً ساجداً امام احد الهيا كل طعنهُ بخنجر فخرَّ على اساس الهيكل . ولما توفي اسدروبال خلفهُ أَنّيبال بن أَملِكار وكان لهُ احدى وعشرون وقيل خمس وعشرون سنة حين ولي قيادة الجيش وكان قد خرج من قرطاجة في الثالثة عشرة من سنيهِ وصحب اباهُ في جميع وقائعهِ فتدرب في اصول الحرب واحكامها ولم يفتهُ شيءٌ من خُدَعها وفنونها . فجعل نُصب عينيهِ ان يوجّه كل عزمهِ الى تقويض اركان رومية لانهُ رأى ان قرطاجة لا يكون لها بقآءٌ في جنبها فشرع اولاً في تدويخ البربر في اواسط اسپانيا حتى لا يكونوا عقبةً في سبيلهِ وجعل يواقع القبيلة منهم بعد القبيلة حتى انتهى الى نهر الايبروس وهو الحدّ بين القرطاجيين والرومان من عهد املكار ثم تجاوزهُ الى مدينة ساغُنتا وكانت من المدن المحالفة للرومان فحاصرها وضايقها اشدّ المضايقة

ولما رأى اهلها انهم مأخوذون لا محالة القوا بانفسهم في نيرانٍ اوقدوها فاحترقوا عن آخرهم

فلما رأى الرومان ذلك وجهوا الى انيبال وفداً يعنفونهُ على ذلك الغدر فلم يتم لهم وزناً فتحولوا الى قرطاجة وسألوا مجلس الشيوخ تسليمهُ اليهم فامتنعوا فكان ذلك سبباً في انتشاب القتال بين الفريقين وهي الحرب الثانية من الحروب الفينيقية وكان ذلك سنة ٢١٩ واستمرت تلك الحرب مدة ثماني عشرة سنة قيل وهي اعظم حربٍ تلطخت فيها الارض بالدمآء

ونهض انيبال بعد ذلك قاصداً ايطاليا فترك ستة عشر الف مقاتل مع اخيهِ اسدروبال لحماية اسپانيا وتوجه بباقي الجيش . وكان الرومان يترصدونهُ في البحر ولكنهُ خالف فتسلق جبال الپيرّناي والألپ في طريقٍ مهلكة تعترضهُ فيها العقاب الشاقة والادغال المشتبكة وهي اوعر طريقٍ سلكها سالكٌ من قبلهِ . فقضى في سفرتهِ هذه خمسة اشهر وكان معهُ عند خروجهِ من قرطاجنّة خمسون الف راجل وعشرون الف فارس فلم يصل منهم الا عشرون الف راجل وستة آلاف فارس . فلما اطلّ على ايطاليا تلقتهُ جيوش الرومان فحدث بينهم وبينهُ عدة معارك كبيرة تتابع لهُ النصر فيها الى ان كانت الموقعة الكبرى في كانّ سنة ٢١٦ فكسرهم كسرةً هائلة قُتل فيها من الرومان نحو سبعين الف رجل

ولبث انيبال يثير الواقعة بعد الواقعة والرومان يتراجعون من وجههِ حتى استولى على الجانب الاكبر من جنوبي ايطاليا ونصب لوآءهُ على رابيةٍ تشرف على رومية ولكنهُ توقف عنها اذ كان قد هلك العدد الاكبر من

خيلهِ فضَعُفَ بذلك جندهُ من الافريقيين وتخاذل الايطاليان عن نصرتهِ لطول زمن القتال فاضطرّ ان يقف عند حدّ الدفاع وارسل يطلب المدد من قرطاجة فلم يحصل منها على كبير طائل لمقاومة الحزب المناوئ لهُ . فاقام يتوقع النجدة من فيلبس المكدوني ومن جهة سرقوسة بناءً على محالفةٍ لهُ معهما فافسدت عليهِ رومية هذه الآمال بان شغلت سرقوسة بالحصار وبثّت لفيلبس الدسائس في بلاد اليونان فاضطرّ الى الرجوع عنها ثم عادت الى بعض المواقع التي غنمها انيبال فاستولت عليها حين كان انيبال زاحفاً على رومية سنة ٢١١. واذ ذاك لم يبقَ لانيبال مايرجوهُ الاجيش اخيهِ اسدروبال في اسپانيا فارسل يستنجدهُ فسار اليهِ ولما بلغ ايطاليا كان الرومان لهُ بالمرصاد فكسروا جيشهُ ثم تمكنوا من القبض عليهِ فاحتزّوا رأسهُ ونبذوهُ الى معسكر اخيهِ

ثم ان الرومان اغاروا على افريقيا ونازلوا القرطاجيين ففازوا عليهم في واقعتين عظيمتين فاضطرّ القرطاجيون ان يستقدموا انيبال من ايطاليا فلم يغنِ ذلك عنهم وآخر الامر أُلجئوا الى المصالحة على ان يتخلوا عن جميع املاكهم في خارج افريقيا وان يسلموا جميع سفائنهم وافيالهم للرومان ولا يباشروا حرباً الا برضى رومية وضربوا عليهم غرامة مبلغها عشرة آلاف وزنة (نحو ستة وخمسين مليون فرنك) تؤدّى في آجال مختلفة في مدة خمسين سنة

(ستأتي البقية)

المستنقعات

لا يخفى ان الابخرة المتصاعدة عن المستنقعات ولا سيما في بعض فصول السنة هي من الاسباب الملازمة المهيئة لحدوث الامراض ولا سيما الحمّيات المستعصية فاذا عرض للانسان اقلّ بردٍ فجائيّ او كان ضعيف البنية او حديث السنّ او سيئ الغذآء او قليلهُ لم يلبث ان يظهر فيهِ سمّ تلك المتصعدات . ولذلك يجب على من اضطُرّ لسببٍ غالب ان يجاور هذه الاماكن ولو مدةً قصيرة ان يتخذ جميع التحوطات الواقية لهُ من اذاها . فاولاً ينبغي لهُ ان يختار ما استطاع ابعد الاماكن عن مجامع المياه الراكدة او على الاقلّ ان يكون بينهُ وبينها حائل من غابةٍ كثيفة او صفٍّ من الشجر الكبير او رابية من الارض وافضل الجهات التي يقيم بها الشمالية او الشرقية . ولا بدَّ لهُ من تبييض جدران المسكن بالجير واغلاق النوافذ من قُبيل المساء وعدم فتحها الاّ بعد شروق الشمس والمحافظة على نظافة البدن بادمان الاستحمام واتّخاذ الملابس الحارّة مع المحافظة على جفافها فيلازم الملابس الصوفية ولا سيما الفلانلَّة على الجلد ولا يكشف رأسهُ ولا سيما في طرفي النهار ويكون لباس رجليهِ من الالبسة المصلَّدة اي التي لا ينفذها المآء وينبغي ان لا يترك على بدنهِ ثوباً رطباً ولا يعود الى لبسهِ الا بعد ان يجفّ تمام الجفاف

اما طعامهُ فيجب ان يكون من الاغذية المقوية وافضلها لحم البقر والغنم وينبغي ان لا يخرج قبل الطعام . واما شرابهُ فيجب ان يجتنب

ما امكن شرب المياه المستنقعة ولكن يشرب من المآء الجاري كالينابيع الواردة من الجبال او مياه الآبار البعيدة العمق بحيث يُؤمَن ان يكون قد تحلّب اليها شيءٌ من مآء المستنقعات . واذا اضطرّ الى الشرب من المآء المستنقع ينبغي لهُ اولاً ان يغليهُ ثم يصفيهُ من خلال الرمل والفحم ويحسن ان يمزج المآء بشيء من العرق ولا بأس من استعمال الخمر مع الاعتدال . ومما يفيد اتخاذ الأشربة العطرية كالشاي والقهوة وكذلك شرب الدخان ولاسيما في الصباح والمسآء

وينبغي ان لا يجعل شغلهُ في الهوآء المطلق الا بعد ان ترتفع الشمس عن الافق ولا يخرج صباحاً الا عن ضرورةٍ ماسّة وكذلك في المسآء وعلى الخصوص في اثنآء الليل . ومما ينبغي لهُ اجتنابهُ الخروج بعد المطر عقب انقطاعهِ اياماً لانهُ يحرّك الطين الراسب في المستنقعات ويخمرهُ . وفي مدة توقد حر الصيف الى دخول الخريف ينبغي ان يبالغ في التحرز والاحتياط ولا بأس اذ ذاك ان يتناول كأساً صغيرة من خمر الكينا في صباح ومسآء كل يوم . واذا كان من ذوي العيال فالافضل ابعاد الاطفال الصغار في الفصل المذكور . اه معرَّباً عن احدى المجلات الصحية بتصرفٍ قليل

رحلةٌ في بلاد المكسيك

كتبت اليكم في رسالتي السالفة (١) ما تيسر لي الوقوف عليهِ من عوائد هذه الامة الغريبة وسائر احوالها العجيبة وفي رسالتي هذه جملةٌ اخرى

(١) صفحة ٤٩٨ وما يليها

اودعتها شيئاً من وصف هذه البلاد مع ذكر لمحة يسيرة من تاريخها لا تخلو من فائدة لمن احب الوقوف على مجمل احوالها

اما البلاد فتحدّ اليوم من لدن الولايات المتحدة شمالاً الى الولايات الجمهورية من اميركا الوسطى جنوباً ويحدها من الشرق خور المكسيك ومن الغرب المحيط الپاسيفيكي . وهي في الغالب بلادٌ جبلية وفيها براكين كثيرة لا يزال بعضها متقداً الى الآن وفي تربتها مناجم غنية من الذهب والفضة وسائر المعادن . اما الهوآء فهو في اكثر البلاد معتدل لمجاورتها خط الاستوآء وارتفاعها عن وَمَد البحر ونداهُ واما في الاراضي الساحلية فالحرّ لا يطاق والثلج على رؤوس البراكين النارية دائم وللسنة فصلان وهما فصل المطر من حزيران الى تشرين الاول وفصل الصحو وهو ما بقي من السنة خلافاً لسائر الاقاليم الشمالية

واهل البلاد فئتان وهما المخيكيون (المكسيكيون) والهنود . فالهنود كالغربآء الى ان يؤدوا الجبايات وهم احرار لان الرقيق حُرّر باتفاق الدول غير انهُ في بعض النواحي كاليوكاطان وما جاورها يستخدمهم الاغنيآء لحراثة الارض ويفرضون لهم اجراً لا يفي بثمن طعامهم فيسلفونهم ما يسدّ عوزهم شيئاً بعد شيء ويستكتبونهم صكوكاً بالمال ورباهُ فلا تمضي على الهندي سنتان حتى يصير من جملة عقار دائنهِ والحكومة تجبرهُ على الاقامة في خدمة مولاهُ الى ان يفي ما عليهِ . ثم يجد لهُ مولاهُ هندية من خادماتهِ يزوجهُ بها ويكفيهِ نفقات عيالهِ بدينٍ يتراكم على دين حتى اذا نفدت حياتهُ قبل الوفآء خلّف الفقر والعبودية للذرية . ويكلّف اولادهُ الخروج من دَين

المورّث على النمط المذكور ولذلك تراهم في ثورة لا تخمد وقتال مستمرّ حتى ان الجنود التي تعيَّن لتلك الناحية لها من الحكومة ضعفا راتبها كما في اوان الحرب

ولا يزال الهنود محافظين على كثير من عوائدهم واخلاقهم القديمة وهم يعيشون قبائل متحيزة ويتكلمون بلغاتهم الاصلية يخالطها كلماتٌ من الاسپانيولية . وهم مسيحيون على المذهب الكاثوليكي الاان منهم من يجمع بين الدين المسيحي والوثنية التي كانوا عليها قبل انتحالهِ ولكنهم يقيمون شعائر الوثنية سرًّا ولا يزالون يتبركون باصنامهم وربما دفنوها في المزارع والحقول يعتقدون انها بذلك تزداد خصباً

وكان لاهل هذه البلاد قديماً حظٌّ من التمدن بلغوا فيهِ غايةً بعيدة وكانوا اهل علوم عالية وصنائع دقيقة كالهندسة والهيئة والتصوير والحفر ومع كثرة ما اتلف الاسپانيول من آثارهم القديمة فانهُ لا يزال كثيرٌ منها باقياً يشهد بما كان لهم من المنزلة في الحضارة . وقد ذكر السياح الاولون الذين دخلوا هذه البلاد عدة كتب مكسيكية لا توجد اليوم من تاريخية وسياسية ودينية وعلمية ولكن المرسلين احرقوا كل تلك الكتب وا كثرها كان مكتوباً بالهيرغليف المكسيكي وحطموا جميع التماثيل والرموز المحفورة مما كانت مفصلة فيهِ حقائق تاريخهم واحوال تمدنهم الوثني . ومن غريب ما يُروى ان اول مرسلي الدين المسيحي كانوا يكتبون لهم التعاليم الدينية بالرسم الهيروغليفي يقلدون بهِ كتابة اسلافهم فكان اول تعليم مسيحي واول تاريخ مقدس بهذه الرسوم فاستأنس الهنود بذلك وكان من أعوَن الوسائط

لنجاح المرسلين بينهم

على ان البلاد اليوم تُعَدّ من البلاد المتقدمة في الحضارة العصرية ولاسيما في المدن وليس الهنود احطّ درجةً من سواهم في الذكآء بل ان كثيرين منهم قد سوّدوا انفسهم و بلغوا بها المناصب العالية على كراهة القوم لهم ومن اشهرهم بطل المكسيك خوارس (Juarez) وهو رئيس الجمهورية الحالي . والحكومة تسعى جهدها في نشر المعارف فقلما يخلو بلدٌ من مدرسة واكثر الهنود يطالعون الجرائد وفي اكثر المدن الكبرى مدارس عالية لتدريس الطب والهندسة والحقوق وما اشبه ذلك . ولهم مدرسة كلية في مكسيكو وهي عاصمة البلاد انشئت سنة ١٥٤١ و يتبعها مكتبة تشتمل على اكثر من ستين الف مجلد وفيها دار للآثار القديمة قد جُمعت فيها العاديّات المكسيكية وفيها فضلاً عن ذلك كثير من الابنية الخيرية كالمستشفيات وملاجئ اللقطآء والعَجَزة وغير ذلك

والصناعة تجاري العلم في التقدم عندهم وفي البلاد معامل عديدة لتجهيز كثير من حاجيّاتها كالخام وهي تشحن منهُ الى الخارج والشاش والاقمصة القطنية والجوارب والاحذية والقبّعات والجِمَة ولفائف التبغ والاشربة الروحية والسكّر والورق والآنية الزجاجية والحديدية وغير ذلك وهي دائماً على ازدياد

اما كنوز البلاد فاغناها الفضة وقد شُحن منها في العام الفائت ما تقرب قيمتهُ من ٣٦٠ مليوناً من الفرنكات وتشحن ما تزيد قيمتهُ قليلاً عن هذا المبلغ من سائر المعادن وحاصلات النبات واكثرها من الليف

والفانيليا والقهوة على ان الاراضي المستثمَرة الى الآن لا تذكر في جنب الاراضي المهملة بيد انهُ مع خصب التربة في اكثر الاماكن ومع اجتهاد الاهالي وسهر الحكومة يؤمل ان هذه الجمهورية ستصبح في زمن قريب من اغنى البلاد　　ج * ن

آلة الكتابة في الطبع

لا حاجة الى وصف ما وصلت اليهِ آلة الكتابة من الكمال حتى جمعت بين القلم والمطبعة في آنٍ واحد وزادت عليهما في السرعة فهي مطبعةٌ تحت يد الكاتب تأتي بالسطور مستقيمة متساوية البعد مع النقاوة والوضوح الى ما لا غاية بعدهُ او هي قلمٌ في يد الطابع يطبع بها ما شاء وهو جالسٌ في مكانهِ من غير ان يعاني جمع الحروف وما يتبع ذلك من معدّات الطبع وكُلَفهِ

وقد بحث الاميركان في طريقةٍ لطبع نسخٍ متعددة من الصور التي ترسمها الآلة الكاتبة على وجهٍ يكون اسهل من الطبع بالطريقة المألوفة واقلّ نفقةً فتوصلوا الى ذلك بان ينقلوا الحروف التي تخطها آلة الكتابة بالتصوير الشمسي على صفائح الزنك ثم يحفروها بالطريقة الكيماوية المعروفة. ثم انتقلوا من ذلك الى صنع صورٍ مركبة من كتابة الآلة وكتابة القلم معاً بان يزيدوا عليها ما لا ترسمهُ الآلة من كل ما يُراد رسمهُ من الحروف والعلامات والنقوش وصور الاشخاص والمناظر الطبيعية وغيرها. والنقوش والصور المذكورة اما ان تُرسَم باليد او تؤخذ عن الصور المطبوعة ان كانت موجودةً فتُقطَع من مكانها وتُلصَق على موضعها من الصفحة المكتوبة

بالآلة ثم يؤخذ رسم كل ذلك بالفوتوغرافية مع تكبيرهِ او تصغيرهِ اذا اريد ذلك وينقَل الى صفائح الزنك فيُحفَر على ما تقدّم

وبهذه الطريقة يمكن ان تؤخذ صفائح تُطبَع بها كتبٌ برمتها مع الاستغنآء عن استخدام الحروف الرصاصية وهي وان لم تبلغ مبلغ الصفائح المأخوذة عن الحروف في اتقان الاشكال واحكام ترتيب الحروف وتنويعها فلا ريب انها اقل نفقةً واسهل منالاً من تلك ولعلهُ مع ادمان التحسين في هذه الآلة يمكن ان يوصل بها الى درجةٍ من الكمال لا تنقص كثيراً عن المطابع المعتادة

كتاب المترادفات

(تابع لما في الجزء السابق)

وفي صفحة ٢١ في مرادفات الشكر « نهض بواجب الانعام والمواهب والنفائس والعطايا والمنن » . فدخول « النفائس » بين هذه المذكورات في غير محلهِ لانها ليست بمعنى المواهب والعطايا على ان هذا تعديدٌ لمرادفات النعم لا لمرادفات الشكر الذي هو عنوان الباب

وجآء بعد ذلك « ونشر لوآء شكر ربّها وبثّ محاسنهُ وعدّد مناقبهُ وشفع متقدم احسانهِ واسبغ بوادي انعامهِ وجدد سالف مننهِ والحق آخر نعمتهِ باولها » وهو من غريب الخلط وانظر اين معنى « شفع متقدم احسانهِ » وما يليهِ الى آخر هذا السرد من معنى الشكر المتقدم وانما هذه كلها في معنى متابعة الاحسان من قِبَل المحسن لا في معنى الشكر من المُنعَم عليهِ

وفي الموضع نفسهِ « انكر الصنيع وقطع زمام التعارف وطوى محاسن المحسنين » . فقولهم « قطع زمام التعارف » غريبٌ في هذا الموضع بل هو من الكلام الذي لا يكاد يتحصل لهُ معنًى وكأنهم اخذوهُ من عبارة الالفاظ الكتابية في باب الشكر « واضطلع بذمام المعارفة » وهذا ايضاً لا معنى لهُ ولكنهم ما اكتفوا حتى نقلوهُ عن بابهِ وتصرفوا فيهِ بما رأيت فبدّلوا الذمام بالزمام والمعارفة بالتعارف ولعل هذا من تصحيحات حضرة « مفتش اول . . . » لله درّهُ

وفي الصفحة نفسها في مرادفات الاحسان والاساءة « فلانٌ يُحسن ويسيء ويُحلي ويُمِرّ . . ويُعرِف ويُنكِر » اي يصنع المعروف والمنكَر وهي عبارة الالفاظ الكتابية لكنهم ضبطوا « يعرف » بضم اوله وكسر الراء وكانهم حملوهُ على « يُنكِر » وهو منكَر . على انهُ لم يرد في اللغة فلانٌ يعرف اي يصنع المعروف ولا فلانٌ ينكر بمعنى يفعل المنكر ولكن يقال أنكرتُ عليهِ فعلهُ اذا عبتهُ واستقبحتهُ فالمُنكَر اسم مفعول منهُ ثم قيل في ضدّهِ المعروف وفسرهُ صاحب لسان العرب بانهُ كل ما تعرفهُ النفس من الخير وتبسأ بهِ وتطمئنّ اليهِ

وفي صفحة ٢٢ في مرادفات الكرم « اريحيٌّ مُخْلِف مفيد » والمخلف لا يأتي بمعنى الكريم انما يقال فلانٌ متلِفٌ مُخلِفٌ اذا كان جواداً مرزوقاً فهو يبدّد مالهُ ويخلف سواهُ . وعبارة الالفاظ الكتابية « هو مُخلِفٌ متلِف ومفيد مُبيد » فاختصروها بما رأيت . قلنا وكان الوجه فيها متلف مخلف ومبيد مفيد اي بتقديم متلف ومبيد لانهُ يُتلِف ثم يُخلِف ويُبيد ثم يفيد

ومعنى افاد هنا اكتسب مثل استفاد

وفي صفحة ٢٥ في باب المدح والذم « وقد نقم عليهِ ومنهُ في عرضهِ اي سبهُّ » وهو من معميات الكلام ولعل الاصل « ووقع في عرضهِ » مثلاً

وفي صفحة ٢٦ « تمادى في جهلهِ وتابع في عمايتهِ » بالبآء الموحدة في « تابع » وانما هي متابعةٌ للاب شيخو في نسختهِ والصواب « تتايع » بالمثناة

وفي صفحة ٢٧ « الشفقة والرقة . . والتحنن والحنين واحد » وانما « الحنين » بمعنى الشوق والطرب وما اشبه ذلك لا بمعنى الشفقة والرقة ولكن الذي يقال بهذا المعنى « الحَنان » يقال حنَّ اليهِ حنيناً وحنَّ عليهِ حناناً

وفيها في مرادفات العِيّ « فلانٌ كليل اللسان ثقيل السَبَلة » ولا معنى للسبلة هنا فانها بمعنى شعر الشاربين او ما يحاذيهما من شعر مقدَّم اللحية . وهذه لم ترد في الالفاظ الكتابية وانما هي من زياداتهم ولعل الاصل الذي اخذوا عنهُ « ثقيل أَسَلة اللسان » وهي طرفهُ

وفي صفحة ٢٨ في وصف البليغ « مفُهِم ما في قلبك محدِث بما في نفسك ممهَّدٌ لهُ الصواب مجنَّبٌ مواقف الزلل واضح الحجة مطَّرد السياق والقياس » وكل هذا خلطٌ بين ما يقال في معنى صدق الفراسة واصابة الظن وما يقال في ظهور الحجة وسداد البرهان وليس من معنى البلاغة في شيء . وقولهم « محدِّث بما في نفسك » المشهور في هذا الاستعمال « محدَّث » بفتح الدال المشددة لا بكسرها ومنهُ في الحديث « قد كان في الامم محدَّثون فان يكن في امتي احدٌ فعمر بن الخطاب » قال في النهاية تفسيرهُ انهم الملهمون والملهم هو الذي يُلقى في نفسهِ الشيء فيخبر بهِ حدساً وفراسةً

وهو نوعٌ يخص الله بهِ من يشآء

وفي صفحة ٢٩ في مرادفات حسن المنظر « سطع نورهُ وتأنق شكلهُ » ولا معنى لتأنق هنا لانهُ يقال تأنق في الشيء اذا عملهُ بالاتقان والحكمة كما في القاموس والصواب « تألّق » باللام مكان النون من قولهم تألق البرق اذا التمع فيكون قريباً من معنى العبارة الاولى

ثم قالوا « واشرقت بهجتهُ ولمعت زهرتهُ » وضُبطت « زهرتهُ » بفتح الزاي والصواب ضمها وهي مصدر الازهر بمعنى المشرق الوجه

وفي صفحة ٣٠ في مرادفات السرور « تقول انسرى همّي وأَسلى غمي وجلا كربي » فظاهرهُ ان هذه الافعال تستعمل استعمالاً واحداً فتقول « أسلى غمّي » بمعنى « انسرى همّي » وليس الامر كذلك فان « انسرى » فعلٌ لازم يُسند الى الهمّ فمعنى انسرى همي ذهب و « أَسلى » متعدٍ تقول اسليت غمهُ اي اذهبتهُ ومثلهُ جلوت كربهُ . وعبارة الالفاظ الكتابية « سرّى همي وأَسلى غمي » لكن الاب شيخو لم يشدد الراء من « سرّى » فبقي مجرداً لازماً فبدّلوهُ بانسرى لانهم رأوا في القاموس انسرى الهمّ عني وسُرّي ولم يجدوا سرَى المجرد فيا للعجب العجاب　(ستأتي البقية)

وقف المنشاوي

لم يبقَ في القطر من لم يتحدث باريحية حضرة السريّ الامثل صاحب السعادة احمد باشا المنشاوي وما تبرع بهِ من الوقف الكبير على منفعة الامة ليُنفَق ريعهُ على مؤاساة فقيرها وتنشئة صغيرها . وما تقاعدنا الى الآن عن

التنويه بهذه المبرّة العميمة والمـأثرة الكريمة الا لأنا رأينا جرائدنا قد تجاذبت هذا النبأ وافرغتهُ في قوالب اغراضها على ما عوّدتنا من مثل ذلك في كل ما يُمدَح أو يُذَمّ من خطيرات الامور ولا سيما اذا كان ثمّة ما تشرئبّ اليهِ اعناق المطامع او تحتكّ بهِ حزازات الصدور على ان الامر اجلّ من ان يخفيهُ الكتمان او يموّههُ الايهام فان الشمس لا يحتجب ضوءها بالغمام وان البدر اسطع ما يكون اذا اشتدّ حلك الظلام ونحن مثبتون هنا ما صح لدينا منهُ تخليداً لذكرهِ وقضاءً لفريضة شكرهِ نأخذ ذلك عن تلك الجرائد بعينها وهذا محصل ما جآء فيها

في الخامس والعشرين من الشهر الحالي سافر الى القُرَشية وفدٌ من قِبَل جمعية العروة الوُثقى ليرفع شكر هذه الجمعية الى سعادة المفضال احمد باشا المنشاوي لاجل وقفهِ مئة فدّان من ارضهِ على مدرسة محمد علي الصناعية وقد أُصحب بكتابين احدهما من رئيس واعضاء الجمعية المشار اليها والثاني من دولة الوزير الخطير رياض باشا رئيس جمعية الاكتتاب للمدرسة المذكورة . ولما وصل الوفد الى القرشية قوبل بما عُهد من مكارم سعادة المحسن ثم رُفع اليهِ الكتابان بعد ما تلاهما بين يديهِ حضرة الفاضل محمد بك الشو باشي احد اعضاء جمعية العروة الوثقى . وهذا نص كتاب الجمعية المنوّه بها

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فخر الاماثل وعين الاعيان صاحب الجود والاحسان ذي الايادي البيضاء خير الخيرين والاسخياء عطوفتلو افندم احمد باشا المنشاوي

من رئيس واعضاء مجلس ادارة جمعية العروة الوثقى الخيرية الاسلامية بالاسكندرية

السلام عليك أيها البار بقومك المخلص لوطنك ورحمة الله و بركاتهُ أما بعد فقد

وافانا النبأ بعظيم ما صنعت من الخير في سبيل الله ابتغآء وجههِ بتوفيقٍ منهُ تعالى ومن ذلك وقف مائة فدان من أجود اطيانك بجهة بقلولة على مدرسة محمد علي الصناعية المزمع انشآؤها بالاسكندرية ينفق ريعها على ادارة هذه المدرسة من يوم تأسيسها. فلله أنت فقد فضلت بهذا الصنيع الاغنيآء فضلاً يغبطونك عليهِ وبررت بالفقرآء برًّا يحمدونهُ مدى الايام وحسبك فخرًا ما صارت اليهِ منزلتك في قلوب الكل فلا غرو أن يخلد ذكرك فأثرك بعد هذا حيٌّ باقٍ يزداد مقدارهُ وينمو في النفوس اعتبارهُ كلما مرت عليهِ الاحقاب وتذاكرتهُ الاعقاب وماذا عسى ان يكون مبلغ قدرتنا على جزآئك الا أن يسجل لك الشكر في هذه الصحيفة التي نحملها اليك ورجآؤنا أن تقبلها وما عند الله خير وأبقى والله يجزي المحسنين

(التواقيع)

وهذا نص كتاب دولة الوزير

عطوفتلو احمد باشا المنشاوي حضرتلري

جمعية اكتتاب مدرسة محمد علي الصناعية المزمع تأسيسها بثغر الاسكندرية تلقت بكل سرور وابتهاج خبر المبرة العظمى التي وفقكم لها وهداكم اليها الحق سبحانهُ وتعالى من وقف جانب من اطيانكم ليصرف ريعهُ على شؤون هذه المدرسة ورأت أن من الواجب عليها ان تقوم لكم بحق شكرها. وبصفتي رئيساً لهذه الجمعية قد كلفتني ان اكون واسطة خير في ابلاغكم حمدها وثنآءها على هذا الصنع الجميل والكرم الجزيل الذي صدر منكم في فائدة العموم مما يخلد لكم الذكرى الحسنة على ممر الايام والازمان ولهذا بادرت بارسال هذا الرقيم لسعادتكم معلنًا لكم كل ما قام بأفئدة اعضآء هذه الجمعية الكرام من حيثيات الشكر والامتنان مع الدعآء المولى عز وجل بأن ينيلكم أجر عملكم هذا ويوفقكم لمثلهِ واكثر وهو الهادي للخير والصواب　　رياض

وبعد ما تُلي الكتابان وتكلم بعض افاضل الوفد بما حضرهم شكرهم سعادة المحسن على ما نطقوا بهِ ثم قال اني لا اجد جوابًا على ما قلتموهُ سوى اني اجمل

الهبة اربع مئة فدان عوض المئة فاستغرق هذا الوعد شكر الحاضرين وطيروا نبأهُ بالبرق الى الاسكندرية . انتهى

ونحن لا نزيد في الشكر على ما جآء في هذين الكتابين البليغين سوى اننا نسأل الله ان يجعل هذا الرجل العظيم قدوةً لسائر الاغنيآء في القطر فان المنشاوي ليس باغناهم ولكنهُ اكرمهم جزاهُ الله افضل ما جزى بهِ اهل الاحسان والهمهُ المزيد من كل ما يجلب لهُ جميل الذكر وجزيل الشكران

آثار ادبيّة

كتاب البؤسآء — لم يصل الينا هذا الكتاب الاَّ منذ ايام قلائل لسببٍ لعلهُ لم يكن الا الاتفاق بحيث قُضي علينا ان نكون آخر من تكلم عليهِ من الكتّاب وان لا نقول كلمتنا فيهِ الاَّ بعد ان طفحت الجرائد بوصفهِ وتقريظهِ وبعد ان نضب معِين الكلام ولم يبقَ للمتأخر الا ان ينسخ كلام من تقدمهُ او يؤمّن عليهِ

على ان الكتاب غنيٌّ بنفسهِ عن التقريظ والاطرآء فان كتاباً وضعهُ ڤكتور هُوجُوّ امير شعرآء الفرنسيس واكتب كتابهم في العصر الغابر وعرّبهُ الشاعر الناثر حافظ افندي ابراهيم نابغة العرب في العصر الحاضر لحريٌّ بان يكون مجمع الابداع وغاية الغايات في صناعة الفكر ووشي اليراع

ولقد تصفحنا اكثرهُ فوجدنا فيهِ من جزالة الالفاظ ومتانة التراكيب وحسن السبك والقدرة على التصرف في تمثيل المعاني ما لو كان الكتاب موضوعاً من عند المعرب لم يأت فيهِ بافصح منهُ ولا احكم وضعاً وارسخ بنآء .

على انهُ لم يتمّ لهُ ذلك حتى تصرّف في قالب التأليف الاصلي واهمل منهُ اعتبار الالفاظ واخذ المعاني مجرَّدةً فألبسها العبارة اللائقة بها وهذا ولا جرم احد مذهبين قديمين في التعريب ذكرهما الصلاح الصفدي ونحن نأتي هنا على جملة كلامهِ لما فيهِ من الفائدة قال

« وللترجمة في النقل طريقان احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما وهو ان ينظر الى كل كلمةٍ مفردة من الكلمات اليونانية وما تدلّ عليهِ من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبهُ . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انهُ لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثيرٌ من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة اخرى دائماً وايضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما وهو ان يأتي الجملة فيحصّل معناها في ذهنهِ ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملةٍ تطابقها سواءٌ ساوت الالفاظ ام خالفتها . وهذا الطريق اجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب الا في العلوم الرياضية لانهُ لم يكن قيِّماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عرّبهُ منها لم يحتج الى اصلاح . » انتهى

قلنا لكن بقي ان لكل قومٍ اصطلاحاتٍ خاصة في المأكل والمشرب والمفرش والملبس واشياء مما تقتضيهِ حالة الاجتماع وآداب المعاشرة مما تتباين فيهِ اللغات بتباين اهلها وليس كل ما عند قومٍ يمكن التعبير عنهُ بلغة غيرهم ولاسيما اذا اتسعت مسافة التفاوت بين اهل لغةٍ ولغة كما هي الحال اليوم بيننا وبين امم الغرب ومن اين للشرقيّ ان يعبّر عن كل ما ينطق بهِ

الغربيّ وثمَّ اشيآء لم يرَها قطّ ولم تمثل لذهنهِ ولا لفظ لها في لسانهِ ولا شيء يقاربها في مصطلح قومهِ وهذه هي العقبة العظمى في الترجمة والتي يرجع المعرّب من دونها حاسر الطرف فيضطرّ ان يخترع لتلك المعاني قوالب من عندهِ يلجأ فيها تارةً الى المجاز وطوراً الى الاشتقاق و ربما حاول التعبير عن المعنى بما يفيد المقصود منهُ لا بما يصوّرهُ بعينهِ وفي كل ذلك من العنآء وكدّ الفكر ما لا يكثر معهُ ان يسلخ مثل معرّب البؤسآء اثني عشر هلالاً في تعريب هذا الجزء منهُ على ما ذكرهُ في صدر الكتاب . على ان هذا ايضاً قد يعزّ على المعرّب مهما اتسع صدرهُ في اللغة وطال باعهُ في اساليب التعبير فيضطرّ اما ان يُنزِل تلك المعاني في غير منازلها فيتشوه رونق الكتاب ويذهب ما فيهِ من مسحة الفصاحة واما ان يهملها رأساً اذا وجد الى ذلك مساغاً وهذا ولا ريب ما وقع لمعرّب هذا الكتاب وهو فيما نظنهُ السبب في اختزال بعض فصولهِ واختصار بعض التفاصيل الواردة فيهِ مما اخذهُ عليهِ بعض المنتقدين

اما لغة الكتاب فهي في النهاية من البلاغة وحسن الترصيف ولا سيما الصفحات الأُوَل من المقدّمة وما يليها وهي التي كان المعرّب فيها مالكاً عنان قلمهِ يصرّفهُ بوحي فكرهِ فيجري حرًّا مطلقاً لا ينساق الا حيث يسوقهُ وجدانهُ ولا يرسم الا ما يرتسم في مخيلّتهِ فترى الكلام منسجماً متداخ الفِقَر لا يعترضهُ تكلف ولا تعسف ولا يرجع المطالع فيهِ على عبارةٍ قرأها. واذا قابلت الكلام هناك بشيءٍ مما وراء ذلك كصفحة ٢٠ مثلاً وجدت المعرّب على غير ما عهدتهُ في المقدّمة وظهر لك من خلال كلامهِ اثر كدّ

القريحة واعنات الروية ورأيت بعض الجمل مستكرَهة على اماكنها وسلك المعنى ينقطع مرةً وينعقد اخرى . على ان هذا لا يُرى الا في مواضع قليلة من الكتاب وسببهُ ان المعاني ليست من بنات فكر الكاتب فربما لم يستمرئها ذوقهُ فمضى في تصويرها على تكلف وكراهة . ثم اذا جاوزت هذا الموضع فنظرت في صفحة ٣٣ مثلاً والصفحتين بعدها رأيت الكاتب قد استأنف ارتياحهُ وعاد قلمهُ الى مثل جريهِ الاول ورأيت الكلام متراصفاً يساوق بعضهُ بعضاً على غير تكلُّفٍ ولا تعمُّل . على انهُ يقال على الجملة ان الفصل الثاني وهو المعنون بفانتين احسن تنسيقاً واقلّ تفاوتاً من الفصل الاول فهو بكلام المعرّب الذي في المقدمة اشبه حتى لا تكاد ترى فيهِ ما يُشتمّ منهُ رائحة التعريب وكانهُ باسرهِ من املاء مخيّلتهِ ونتاج فكرهِ

على أنَّا لا نبرّئ المعرّب من التكلف في استعمال بعض الالفاظ والتراكيب مما كان لهُ مندوحةٌ عنهُ بغير ان تنزل طبقة كلامهِ . وذلك مثل قولهِ في صفحة ٢١ « يشيّعون ذلك الطريد بنظراتٍ يُقعِد همة الفوتوغرافيا تصويرما فيها من الاستخفاف » اي تعجز الفوتوغرافيا عن تصوير ذلك الاستخفاف فجعل للفوتوغرافيا همةً وهي استعارةٌ غير مرضيّة لما فيها من البعد عن المطبوع . وقريبٌ منهُ في صفحة ٢٣ « وكاني اسمع صوتاً يقطر منهُ الدم » وقَطران الدم من الصوت مما لا تأنس بهِ الافهام . وفي صفحة ٤٧ « كان القمر منذ زمنٍ لا يتعدى شطر ساعةٍ مقنَّعاً بغمامة » اي كان منذ نصف ساعة . وفي صفحة ٧٥ « فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم » اي لم تقل لا ولا نعم . ومن هذا القبيل في صفحة ٣١

« أحملُ لهُ ضَبّ الضِغن » على ان الضبّ والضغن شيءٌ واحد وكلاهما بمعنى الحقد . وفي صفحة ٥٣ « الق الشرق في شعر رأسهِ سلوكاً ذهبية » وفسر الشرق بالشمس . وفي صفحة ١٢١ « وفعل شرواهم » اي مثلهم . وفي صفحة ١٤١ « فأخذت مادلين الارض » وفسر الارض بالرعدة فما ضرَّ لو استعمل في هذه الالفاظ كلها مرادفاتها من المأنوس

وربما تسامح في بعض الالفاظ الشائعة فاثبتها من غير ان يستثبتها من كتب اللغة وذلك كاستعمالهِ البرهة (ص ٤٠) للزمن القصير . وباهت اللون (ص ٩٨) بمعنى كَمِدهِ . وتبقّى عليهِ كذا (ص ١٠٥) اي بقي . والنجمة (ص ١١٢) للنجم . ويلحق بهذا مثل قولهِ (ص ١٤٠) « لمحتُ باحد نخذيك فَدَعاً » والفدع يكون في القدم لا في الفخذ وهو ان يعوجّ الرُسغ حتى تنقلب القدم الى إنسيها وقيل هو ان يمشي على ظهر القدم . ونظن ان المقصود هنا اعوجاج عظم الفخذ وهو من المعاني التي لم يوضع لها لفظٌ في اللغة لانهُ ليس من الاحوال التي تقع عادةً ولو اتفق لنا ان نعبّر عنهُ لما جاوزنا لفظ الاعوجاج او ما في معناهُ . وقولهِ (ص ١٨) « صعّر الجنديّ خدّهُ » وفسرهُ بقولهِ « شمخ بانفهِ وتكبرَ » وما ننكر ان تصعير الخدّ اي امالتهُ قد يكون كناية عن الكبر ولكن تفسيرهُ بما ذُكر بعيد ومثل هذا انما يجوز في سياقة المترادفات ولا يصلح للتفسير اللغوي . ومثلهُ في الصفحة المذكورة تفسير تبلَّغ باكل الخبز والتبلُّغ في اللغة بمعنى الاكتفاء بالقوت اليسير . وفي صفحة ٩٤ « ان يعمد الى لفيفة من الطبّاق » وفسر الطبّاق بانهُ المعروف الآن بالدخان او التنباك » قلنا وكان هذا حسناً لو ساعدتهُ

نصوص اللغة لمجانسته اللفظ الاعجمي الموضوع لهذا النبات ولكن الذي في كتب اللغة وكتب المفردات الدوآئية انهُ اسمٌ لنباتٍ آخر لا ينطبق وصفهُ على هذين النوعين

وربما وقع لهُ غير ذلك كقوله في صفحة ٥٦ « ألم تعثر في طريقك ايها الراهب بغلام » والمنصوص عليه في هذا المعنى عثر عليهِ لا بهِ . وفي صفحة ٧٥ « عوّلت على مغادرة ابنتي » اي اجمعت وصممت وليس هذا معنى اللفظة ولكن يقال عوَّل عليهِ بمعنى اتكل . وفي صفحة ١١٠ « بقيت تضقض من البرد » اي تقفقف ولم يجيء قضقض بهذا المعنى

وقد بقيت هناك اشياء أُخر لم نتعرض لها اجتزاءً بما ذُكر وهو كافٍ لتنبيه حضرة المعرّب الى تدارك امثال هذه الهفوات فيما بقي من الكتاب والرجوع على ما طُبع منهُ بمثل ذلك ان احبّ . وما فعلنا الا ونحن على يقين من الشهرة التي سينالها هذا الكتاب بين طلاب الادب ومزاولي الانشآء فهو جديرٌ بان ينزَّه عن كل ما يعترض الثقة بهِ والاسترسال اليهِ وهذا ما دعانا الى تكلف نقدهِ على قلة رغبتنا في النقد مع كثرة المطبوعات في هذه الايام وما هو معلومٌ من حالها في الركاكة والخطآء

وفي الختام فانّا نهنئ حضرة صديقنا الفاضل بما احرزهُ من الحظ الكبير في هذه اللغة الشريفة كما نهنئ اللغة بما اوتيت على يدهِ من الحياة الجديدة بعد ما اوشكت ان تلفظ آخر انفاسها وفي يقيننا انها اذا رُزقت من بنيها من يقتفي أثرهُ في تجديد رونقها فلا نلبث ان نراها قد نفضت عنها ثوب الهرم واستعادت ماضي شبابها وما ذلك عليهم اذا شآءوا ببعيد

فكاهات

الضريح (١)

حدثني صديق قال

ما انتهى موسم سنة ١٩٠٢ وانقضى شتآؤها حتى دخلت القاهرة كعادتها في طورها الصيفي فوقفت حركة العمل وهبت الخماسين وزادت حرارة الشمس فعلها في الاجسام وكنت قد رصَّدت حساباتي السنوية فوجدت ان ارباحي في ذلك العام فاقت العام السابق فحدثتني نفسي ان اروّح النفس من عنآء الاشغال وانجو من حرارة الصيف ولم يكن لي عيال يمسكونني فجهزت لوازم السفر وغادرت القطر منطلقاً في ارض الله حرًّا كالهوآء وسعيدًا كطير السمآء . وما زلت اتنقل من بلدةٍ الى اخرى حتى ألقاني الترحال الى ايطاليا فكنت اتنقل في مدنها الى ان بلغت فلورنسا فأعجبتني جدًّا واقمت بها اياماً زرت فيها جميع انحآء البلدة بصحبة صديقٍ عرفتهُ هناك شخصيًّا وكنت اعرفهُ قبلاً بالاسم لما بين محلي ومحلهِ من المعاملات . و بينما كنا يوماً نسرّح الطرف في شوارع تلك المدينة ونتفرج على بناياتها الفخيمة نظرنا قصرًا قديم البنآء عظيم الابهة في وسط حديقة متسعة غنآء جمعت من كافة اصناف الاشجار المثمرة والازهار البديعة . وكان باب الحديقة مفتوحاً واخبرني صديقي ان الدخول مباح للجمهور فدخلنا نتخطر بين الورود والرياحين وصديقي يتلو عليَّ تاريخ ذلك القصر وسكانهِ فعلمت منهُ انهُ لأُسرةٍ من اقدم أسر الطليان واعرقهم نسباً حافظ بنوها على هذا البنآء و يقيم فيهِ الآن الباقي من نسلهم واسمهُ المركيز بيرنزا . و بلغنا في منتصف الحديقة بناية صغيرة من حجر المرمر تحيط بها اعمدة من الرخام البديع

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

النقش وعليها قبةٌ من صنف البناء وفي اعلاها تمثال لم تصنع يد نقاش ابدع منهُ . وكان على مسافة قريبة من هذه البناية وعلى محيطها اشجار من الصفصاف الباكي قد تدلت غصونها فوق البناء فزادت في حسن منظرهِ اكثر من الرياحين والورود التي كانت تكسو الارض كأنها بساط فرشتهُ يد الطبيعة اجلالاً لذلك المقام . وسألت صديقي عن المراد بهذه البناية فقال لي انها ضريح . فقلت قد اريتني في المقبرة بناية تثمن بالالوف واخبرتني انها مقبرة اسرة بيرنزا فلماذا لم يدفن فيها هذا الميت ولمَ شذّ هذا عن قاعدة الاسرة وكيف وُجد الضريح بجانب قصر السكنى وفي وسط هذه الحديقة . فتنهد صديقي وقال ان لذلك تاريخاً محزناً وان شئت اطلعتك عليهِ . فقلت نعم احب ان اسمع ذلك فقادني الى ناحية خيمت فيها الاشجار واجلسني على دكةٍ طبيعية في جذع شجرةٍ قديمة وبعد ان صمت هنيهةً جمع فيها افكارهُ قصَّ عليَّ ما يأتي فقال

اعلمتك شيئاً من تاريخ اسرة بيرنزا وانهُ لم يبقَ منها سوى ساكن هذا القصر واسمهُ المركيز روبرتو بيرنزا . فلما كان في الخامسة والعشرين من عمرهِ اقترن بفتاة من اسرةٍ لا تنحطّ عن اسرتهِ مقاماً فكانت لا تهتم الاّ براحة زوجها ولا يهمهُ سوى رضاها . وفي نهاية السنة رزقهما الله ولداً ذكراً سمياهُ لودوفيك وكان سرورهما بهذا المولود لا يعادلهُ سرور في العالم وجعلا شغلهما الشاغل الجلوس بجانب سريرهِ يتأملان جمالهُ الملوكي ويعدان تنفساتهِ وطرفات جفنيهِ . وكان الغلام ينمو تحت رعايتهما فيزيد وجههُ اشراقاً ويمتلئ جسمهُ وتتقد في عينيهِ نار العظمة والذكاء

وفي ذات يوم كان المركيز في مكتبتهِ يطالع اوراقاً تختص بأشغالهِ فخرجت المركيزة الى الحديقة وبصحبتها الخادمة تحمل الطفل وقد بلغ الثالثة من عمرهِ فكانا يتنزهانِ في ارجاء هذه الحديقة . وبلغا جانباً منها كان يحفظ المركيز فيهِ اصناف الطيور والحيوانات الداجنة لانهُ كان مولعاً بتربيتها وكان بينها ثورٌ شرس جداً ابتاعهُ المركيز حديثاً بثمن باهظ رغبةً منهُ في الحصول على نتاجهِ . وحدث انهُ عند اقتراب المركيزة وولدها والخادمة ان الثور كان في ساعة هياج شديد وزادهُ منظر

هؤلآء شراسةً وجنونًا فكان يثبُ في بيتهِ الخشبي فيزعزعهُ وخشيت المركيزة سوء العاقبة فأشارت الى خادمتها بالابتعاد عن ذلك المحل وما سارا قليلاً حتى رأى الثور ابتعادهم فزاد غيظهُ وهجم الى باب زريبتهِ ودفعهُ بقوةٍ شديدة فتحطم وخرج منهُ يعدو تابعًا اياهم . فصاحت المركيزة صياح الرعب وانطلقت تجري بمنتهى قوتها ورآء الخادمة وكانت قدضمت الغلام الى صدرها واطلقت ساقيها للريح . وما زالتا في ركض شديد حتى عثرت الخادمة بطرف ثوبها فسقطت والغلام الى الارض ورأت المركيزة ذلك والثور جادٌّ في اثرهما فرأت ان لا بد من استيقافهِ قليلاً ريثما تتمكن الخادمة من النهوض أو يجيئ احد لاغاثتهما . ولما لم يكن لها من الوقت الاّ ثوانٍ قليلة لان الثور أوشك ان يدركهما وقد نظرت الى ولدها في ذلك الخطر وكأن تلك النظرة قد اكملت فيها القوة التي كانت تتوقعها فارتدّت على اعقابها لتقابل الثور الهائج بقلبٍ اشد من الحديد كلبوءةٍ تودّ ان تلتقي بصدرها رصاصة الصياد الموجهة الى قلب شبلها . وكأن ما برق في عينيها من نار القوة والاقدام وما ظهر من جرأتها في ذلك الاقدام قد اثّرا في الحيوان فتوقف هنيهـةً ولكنهُ ما عتم ان عاد الى عدوهِ هازئًا بذلك العدوّ اللطيف واستقبل المركيزة وقد نكس رأسهُ وضربها بقرنيهِ فبقر بطنها ثم رفعها عن الارض . وفي نفس الدقيقة دوى في الفضآء طلقٌ ناريٌّ ارتفع على اثرهِ جؤار الثور ثم سقط الى الارض يتدفق الدم من صدرهِ . وكان المركيز قد سمع صراخ زوجتهِ والخادمة فأطلّ من نافذة غرفتهِ مذعورًا ورأى المنظر الذي ذكرناهُ فأسرع كوميض البرق الى غرفة السلاح وأخذ بندقية ثم عاد الى النافذة واطلق تلك الرصاصة القاتلة في نفس الدقيقة التي كان فيها قد قضي على المركيزة

واسرع المركيز وخدم القصر الى محل الحادثة واهتم بعضهم بالطفل والخادمة وكانت قد اغمي عليها لشدة الرعب على اثر وقوعها واسرع المركيز الى زوجتهِ فرفعها عن قرني الثور ونقلوها الى القصر واستدعى المركيز اشهر الاطبآء للنظر في امرها فوجدوا ان لا امل في نجاتها . وبقيت تلك المسكينة ليلتها في عذابٍ شديد ولم تنطق بكلمةٍ واحدة الى انبثاق الفجر فاشارت انها تود مشاهدة ولدها فأتوها بهِ فجاهدت

شديداً حتى تمكنت من مد يدها فوضعتها على رأسهِ وقالت سامحني ايها الصغير فقد جئت بك الى هذا العالم ولم اتمكن من مساعدتك للسير فيهِ ثم ضمتهُ الى جانبها فقبلتهُ ونظرت الى زوجها كانها تريد ان توصيهُ بهِ ولكنها لم تستطع النطق فاقترب المركيز منها والزفرات المتصاعدة تمزق صدرهُ وقال قد فهمت مرادكِ ايتها الحبيبة فتبسمت وشخصت ببصرها الى العلآء واسلمت الروح

وكان حزن المركيز في غاية المرارة فدفن زوجتهُ بمنتهى الاجلال والاكرام وانقطع عن جميع الملذات والمسرات فلم يعد يخرج من قصرهِ وانقطع الى السهر على ولدهِ ولم يسمح لاحد بمقابلتهِ سوى خادم امين يدعى لورنسو كانت اجدادهُ في خدمة اجداد اسرة بيرنزا فكان المركيز يأنس بهِ ويرى بهذا الرفيق عزآء وسلوانًا

وشب لودوفيك فكان مثال والدتهِ في الجمال ورقة الطبع وطيبة القلب ومثال والدهِ في قوة الجسم والادراك والاقدام وتلقن علومهُ الاولية على ايدي اساتذة استحضرهم لهُ المركيز. ولما بلغ الحادية والعشرين من عمرهِ طلب من والده ان يرسلهُ الى باريز ليدرس فيها الحقوق . فكان لهذا الطلب عند المركيز في اول الامر وقعٌ محزنٌ جداً لانهُ كان يود ان لا يفارق ابنهُ طرفة عين ولكنهُ عاد فتذكر مجد اسلافهِ واقدامهم ورأى من الصواب ان يكون ابنهُ كاجدادهِ رجل فخار وشهرة واسعة لا تتأتى لهُ اذا اقام العمر في قصرهِ فاذعن اخيرًا لطلب لودوفيك وهو يود ان تفارقهُ حياتهُ ولا يفارقهُ ابنهُ . ثم جهز لهُ لوازمهُ واعطاهُ مبلغاً كافياً من المال وزودهُ ببعض الوصايا الابوية وسافر لودوفيك الى باريس مترضياً والدهُ معتمداً على تسهيل الله . ودخل المركيز الى قصرهِ فارتمى على سريرهِ واستخرط في البكآء

و بلغ لودوفيك باريس فتوجه الى مدرسة الحقوق وانتظم في سلك الطلبة ثم اكترى لهُ غرفةً في بعض احيآء المدينة التي تقرب من المدرسة وكانت غرفتهُ في بيتٍ كبير بناهُ اصحابهُ لتأجيرهِ غرفاً غرفاً . فأثث لودوفيك غرفتهُ بسلامة ذوقهِ فكان رياشها بسيطاً وفاخرًا وكان يقضي معظم نهارهِ في المدرسة ومتى انتهى منها يعود الى غرفتهِ حيث يطالع دروسهُ او يؤلف الحاناً موسيقية على البيانو وكان شديد

الولع بالنقر عليهِ . وبقي على هذه الحالة السنة الاولى والثانية وكان يرجع الى ابيهِ في فلورنسا ويقضي بجانبهِ اياماً من كل سنة مدة عطلة الدرس

وفي اثنآء السنة الثانية صاحب لودوفيك رصيفاً لهُ في المدرسة يدعى اوغست وكان هذا من اسرة غنية جدًّا ولكنهُ ضعيف البنية . وكان التلامذة يكرهونهُ فتعصبوا عليهِ اما لودوفيك فمال اليهِ ولزم صحبتهُ ولما لم يرَ اوغست لهُ معيناً سوى لودوفيك الفهُ واصبح كاخيهِ فكان يأتي في اكثر الاحيان ويقضي اوقات فراغهِ معهُ في غرفتهِ . وحدث يوماً ان كان لودوفيك يطالع في كتبهِ فسمع صراخاً فاجفل ووثب الى باب غرفتهِ فرأى في غرفةٍ مقابلة فتاة تستغيث فاسرع اليها فعلم انها تقيم هنالك مع والدتها منذ مدة وان والدتها قد مرضت من عهد قريب وقد اشتد بها المرض واصابتها في تلك الدقيقة نوبة شديدة فخافت الفتاة وصرخت مستغيثةً وهي لا تدري ماذا تفعل . فتقدم لودوفيك الى داخل ورأى الام على سريرها وقد شخصت عيناها واصفر وجهها ووقفت قطرات العرق البارد على جبينها فتقدم بكل هدوء وجسّ يدها فوجد ان سخونة الحياة قد فارقتها وتسلطت عليها برودة الموت ثم أدنى رأسهُ من صدرها فوجد ان ضربات قلبها قد وقفت . ورأى بعد هذا الفحص ان الفتاة تنتظر منهُ كلاماً فترك الميتة واخذ في تعزية هذه بكلمات رقيقة واعلمها بمنتهى الرقة والحنوّ أن والدتها قد قضت نحبها . فجعلت الفتاة تلطم وتنتحب وتقول اواه يا أماه والى من تركت ابنتك وحيدةً في العالم . وكان لودوفيك قد نادى صاحبة البيت ووكل اليها الاعتنآء بتجهيز الفقيدة واجرآء اللازم لدفنها واهتم هو بتسلية الفتاة وقد رأى فيها جمالاً ملائكيًّا وأدباً وبساطةً اخذا بكامل عقلهِ . ولما حُملت الجنازة الى المدفن وواروا الجثة في التراب اخذ لودوفيك بذراع الفتاة وارجعها الى البيت وهو لا ينفك عن تسليتها وتسكين عواطفها بارق الكلام واعذب عبارات التعزية . ورأت الفتاة من نفسها ثقةً بلودوفيك فكانت تعاملهُ معاملة اخٍ حبيب وتنتظر رجوعهُ من المدرسة بكل اشتياق فلا تقع عينها عليهِ حتى يسري عن وجهها ما تراكم عليهِ من الحزن والهم . وشعر لودوفيك ان من واجباتهِ تسلية الفتاة في زمن حزنها فكان

اذا انتهى من درسهِ يعود مسرعاً الى البيت ليقابلها ويجتمع بهـا . وعرف منها انها تدعى مرغريت وانها جاءَت ووالدتها من جنوبي فرنسا بعد موت ابيها وسكنتاذلك المحل فكانت الام تعمل في الخياطة وصناعة القبعات فتكسب ما يكفي لقوتهما وتربية ابنتها . فقال لها لودوفيك وماذا ترومين ان تفعلي الآن . قالت سأبقى في هذا المحل لاني غريبة عن العالم ولا استعطي لاني فتاة في نضارة شبيبتي وابان قوتي فسأسعى في تعاطي عملٍ كما كانت تفعل والدتي . فصوّب لودوفيك رأيهـا وثبتها على عزمها ووعدها انهُ يبذل جهدهُ في تدبير اشغال يحضرها لها لتعملها . وكان حقيقةً كالاخ يساعد مرغريت ويحرسها ولا يفارقها كلما تمكن من ذلك . وكان يعجب بآدابها وذكائها الغريب فكان موضوع حديثهما ادبيًّا اجتهد فيـهِ لودوفيك ان يبثّ في صدرها زيادة العلم والاطلاع فاذا سارا في الحديقة وصف لها الازهار وعلمها في عرض الحديث شيئاً من علم النبات او اذا سهرا كلمهـا عن النجوم والافلاك وكانت تجد في حديثهِ لذةً وتشعر بارتفاع ضبابة الجهل عن عينيها وتوسعها في المعرفة فصارت لا تجد لذةً الا بوجود لودوفيك فتدأب في العمل مدة غيابهِ وتتفرغ لمجالستهِ حين وجودهِ . وكان العمل الذي يحضرهُ لها مع مساعدةٍ مالية يضيفها الى اجرة عملها بدون علمها كافية لمعيشتها . وسمعها يوماً تنشد فاعجبهُ صوتها الرخيم وكانت قد انقضت مدة الحداد على والدتها فطلب اليها ان تجيءَ الى غرفتهِ وكان يعلمها ضرب البيانو والغناءَ . وبالاجمال فانهُ كان كالصائغ ومرغريت في يدهِ كسبيكة من الذهب الثمين يصوغها كيف شاءَ ويُفرغها في القالب الذي يراهُ اتم صنعاً وابدع جمالاً

وفي ذات يوم كانت مرغريت في غرفة لودوفيك تراجع اغنيةً علمها اياها فدخل صديقهُ اوغست وما وقعت عينهُ على طلعة مرغريت حتى شعر بتغيير حالهِ فوقف هنيهةً يتأمل في جمالها الرائع وصوتها الرخيم وحسن تنقل اصابعها على الآلة الموسيقية ولما انتهت مرغريت من اغنيتها قدمها لودوفيك الى صديقهِ وعرَّف بعضهما ببعض وجلس الثلاثة معاً فغاصوا في بحار الحديث

وسقط اوغست في وهدة الهيام وادرك ان صديقهُ لودوفيك يهواها ايضاً

ولكنهُ تجاهل الامر وسعى في استمالة قلب الفتاة فجعل يزور صديقهُ يوميًّا وفي كل يوم يستصحب معهُ هدايا نفيسة فيقدمها الى مرغريت وتقبلها منهُ بمنتهى البساطة والشكر . اما لودوفيك فكان قد وطن عزمهُ على الاقتران بمرغريت متى بلغت سن الرشد ويكون هو حينئذٍ قد انهى دروسهُ فيصير ولي امرهِ ولذلك لم يشأ ان يفاتحها بشيء من هذا الموضوع بل اقتصر على ما ذكرنا من معاشرتها وتخليقها باخلاقهِ وتعليمها ما يود أنها تعرفهُ . فلما انتهت السنة المدرسية وجآءت ايام العطلة سافر لودوفيك كعادتهِ لقضآء تلك المدة مع والدهِ تاركاً مرغريت في حراسة صديقهِ اوغست بعد حراسة الله .

ولما انقضت ايام العطلة عاد لودوفيك الى باريس فوجد ان حبيبتهُ مرغريت قد غادرت محل سكنها فتعجب عجبًا شديدًا وقلق لهذا الامر ثم سمع ايضاً من افواه رصفآئهِ ان اوغست صديقهُ لم يعد الى المدرسة فاشتغل خاطرهُ وقضى اياماً يبحث بحثًا مدققًا عن صديقهِ ومالكة فؤادهِ فلم يقف لهما على اثر . وبعد نحو خمسة عشر يومًا من عودتهِ بينما كان لودوفيك جالسًا في غرفتهِ لم يشعر الا وباب غرفتهِ قد فتح ودخلت مرغريت ومآء الحياة يتدفق من وجهها . فشهق لودوفيك لرؤيتها ونهض لاستقبالها ثم جلس الحبيبان واخذ لودوفيك يقص عليها ما نالهُ من الاسف حين عاد ولم يرها . فأظهرت مرغريت شديد الاستغراب لكلامهِ وقالت كيف انتظرت ان تراني هنا وقد اوصيت صديقك اوغست ان يذهب بي الى ليون . فحملق بعينيهِ وقال الى ليون . . انا اوصيت اوغست ان يذهب بكِ فما معنى هذا الكلام . فقالت مرغريت نعم انهُ بعد سفرك بيومٍ واحد اخبرني اوغست انك تحبني محبة اختٍ وانك كنت تود ان تقترن بي لو كنت من اسرة في مقام اسرتك ولكنك لا تتمكن من ذلك لانني فقيرة الحال ومن ابوين فقيرين وانك اقنعتهُ بوجوب محبتي والاقتران بي بعد سفرك فورًا وان ينقلني الى ليون . ولا اكتمك انني لم اكن اميل الى اوغست قط وانني من اول مرةٍ رأيتك علقت جميع آمالي بك ووددت ان اكون زوجةً لك غير انني لما سمعت برغبتك هذه واعتقدت انهُ من المحال ان اكون لك اذعنت

لحكمك كرهاً وانا أود ان ابقى الى الابد في منزلة شقيقةٍ لك تثق بك وتتكل عليك، فاقترنت بأوغست وسافرت معـهُ لارضيك فقط . ولكنني ما بعدت عن باريس حتى شعرت ان نفسي في سجنٍ مظلمٍ وان لا شيء في العالم يعيد اليَّ سروري وارتياح ضميري سوى وجودك بالقرب مني فكنت اتوقع ايام عودتك حتى علمت ان موعد المدرسة قد عاد فطلبت الى اوغست ان نرجع الى باريس فأبى وحدثتني نفسي بعد رفضهِ باشياء فعزمت ان اقابلك واسألك ان تصرح كأخٍ بما يكنهُ فؤادك من نحوي . وكان لودوفيك يسمع كلامها وهو يشعر بانقضاض صاعقةٍ على رأسهِ أو أفعى تنهش صدرهُ وتأكد للحال خيانة اوغست صديقهِ وانهُ احتال على ذلك الملاك فانتشلهُ من بين يدي لودوفيك . فصمت حيناً وهو كالمبهوت لا يحير جواباً ولكنهُ عاد فتمالك روعهُ وقال يا حبيبتي مرغريت انني لم احبكِ كأخٍ قط بل انما احببتكِ كملَكِ سعادتي ونجم مستقبلي وكنت احسب الايام والدقائق الى ان انتهي من المدرسة فأبوح لكِ بحبي الذي كنت اتأكد ان عندكِ نظيرهُ لي فاقترن بكِ ونرجع الى والدي ليستقبلنا ببركتهِ الابوية . فآه من الخائن الذي تجاسر ان يهدم صرح آمالي ويقطف زهرة حبكِ التي كنت اراعي نموها مذ عرفتك الى الآن . وادركت مرغريت الحالة في لحظة واحدة وكانت حقيقةً متيمة بهوى لودوفيك ولم تتخذ اوغست زوجاً لهـا الاَّ رغبةً في ارضاء حبيبها فأصابتها نوبةٌ عصبية وسقطت بين يدي لودفيك خائرة القوى تصعد الزفرات

ولما ملك الحبيبان روعهما قال لودوفيك يا مرغريت قد قضت العناية بما حصل وحرمتني اياكِ فارجعي الى اوغست وعساهُ ان يقوم لديكِ بما كنت اود ان اقوم بهِ انا . قالت كلا لن اذهب ما لم تجئ بصحبتي فنعيش معاً لانني ان لم احقق سعادتي بان اكون زوجةً لك فلا اقل من ان تبقى اخاً لي وقريباً مني . وظهرت على وجه لودوفيك علامات دالة على الحرب العوان الثائرة في صدرهِ فتنهد من قلب جريح وقال لا . لا . ان هذا اليوم قد قرر مستقبل حياتي يا مرغريت فانني لم أرَ الحياة الا في وجهكِ ولا السعادة الا في قربكِ ولا الفوز الا بالحصول عليكِ اما

الآن وقد اصبحت ملك سواي فقد حرمني الدهر جميع ذلك ولست بخائنٍ صداقتي لاوغست لاسعى في استرجاع ما سلبني اياهُ . بل ان نفسي تصدني عن ارتياد مآء قد ولغ فيهِ هذا الخائن فزوّديني نظرةً اخيرة من هذا الوجه اللطيف وعودي الى زوجكِ واتركيني الى ما صممت عليهِ . فقالت واليأس يقطع فؤادها وعلامَ صممت ايها الحبيب . قال سيبلغكِ ذلك عن قريب

وقضى الحبيبان حصةً من الزمن يأسفان على ما جرى ويحزنان على ما ليس في الامكان ردّهُ ثم اجبر لودوفيك مرغريت على مفارقتهِ فخرجت تاركةً روحها بين يديهِ وبقي لودوفيك ينظر الى ان غابت عن بصرهِ فعمد الى مكتبهِ وكتب الى والدهِ الكتاب الآتية صورتهُ

يا ابي الحبيب

اصفح لي يا ابتِ عن المرارة التي سأذيقك اياها برضاي . انني صممت على نيةٍ لا تحولني عنها قوة بشرية ولكنني اقف عند الافتكار بها لأخط لك هذه الكلمات فيا ابتِ اصفح لي . قد وهبتني الحياة يا ابي فهذه الحياة ارفضها الآن . قد علمتني منذ صغري ان اعيش شريف النفس او اموت قبل فقد شرف نفسي ولم يمكني الامر الاول فقد اخترت الثاني ولا يبلغك تحريري هذا الا ويكون ولدك الوحيد قد مات مفضلاً ذلك على الاخلال بالمبدأ الذي تعلمهُ منك

قد خانني يا ابتِ اعز اصدقآئي وسلب مني فريدة عقدٍ لا يوازيها العالم باسرهِ فان شئت ان اعاقب ذلك الصديق واجازي شرهُ بشرٍّ اعظم فليس ذلك مما علمتنيهِ . وان عزمت على استرجاع ما سُلب مني فهيهات ان تعود تلك الجوهرة الى صفـآء مآئها وقد دنستها يد الخائن الظالم . وان رضيت بالمذلة ووقفت ناظرًا بسكوتٍ الى ما حصل فان دم بيرنزا لم يسبق لهُ ان يجمد باردًا في اتون من النار . فترى اذًا يا والدي الحبيب ان حياتي التي اعطيتني اياها لم يعد لهـا نفع عندي ولذلك ارى نفسي مضطرًّا ان لا اقبلها بعد الآن . فاجثو تحت قدميك يا ابتِ ضارعًا اليك ان تصفح عن ولدك النكد الطالع لما يسببهُ لك الآن من الحزن وتعزَّ بما اعتقدهُ الآن

في ساعة موتي ان حياتي لو بقيت لكانت شقآء مستمرًّا اما موتي فسعادة وهنآء

ولدك الجاحد فضلك

لودوفيك

ولما انهى لودوفيك رسالتهُ هذه ختمها وعنونها باسم والدهِ ثم القاها على مكتبهِ وجعل يخطر في غرفتهِ ذهابًا وايابًا وهو عرضةٌ لافكارٍ هائلة وكأنهُ لم يتمكن من احتمال تلك الافكار فأسرع الى غدارةٍ كان يحفظها عندهُ فحشاها وأخذ باليد الواحدة صورة حبيبتهِ مرغريت فأدناها من فمهِ واطلق بالاخرى الغدارة على رأسهِ فخر الى الارض قتيلاً

واكتشفت جثتهُ في اليوم الثاني فنقلت مع كتابهِ الى فلورنسا الى ابيهِ فكانت حالة المركيز الشيخ تفتت القلوب واستقبل جثة ابنهِ ومن يراهُ يظنهُ انهُ هو الفقيد. وكان يود ان يقيم احتفالاً باهرًا فأبت الكنيسة ان تسمح لهُ بذلك لانها لا تقيم احتفالاً دينيًّا للمنتحرين ولم يؤذن لهُ ان يدفنهُ في مقبرة الاسرة لنفس السبب فضاقت الدنيا على رحبها على وجه المركيز فأخذ جثة وحيدهِ ودفنها في هذه الحديقة بمساعدة خادمهِ الشيخ و بنى فوقها هذا المزار وهو من ذلك الحين يقضي معظم وقتهِ فيهِ. ولما بلغ مرغريت ماجرى انّبها ضميرها لتصديق اوغست والاغترار بهِ فكانت سببًا لموت حبيبها فذهبت الى دير تقضي فيهِ بقية ايامها

. . . .

وما أتم صديقي تلاوة هذا التاريخ المحزن حتى حانت منا نظرةٌ فرأينا المركيز وقد حنى ظهرهُ الكبر وابيض شعرهُ الطويل المسترسل على اكتافهِ وصدرهِ قد أتى باكليل من الورد فوضعهُ على جانب من الضريح وجثا رافعًا يديهِ الى السمآء مصليًا مستمطرًا على ابنهِ الرحمة والرضوان. ولا اذكر في جميع سياحتي منظرًا اثرت فيَّ رؤيتهُ كذلك المنظر المهيب فلا تبرح صورتهُ من مخيلتي